Bilad Alrafidain Journal of Humanities and Social Science Vol. 7, No. 4 **ISSN: 2788-6026**
Doi: 10.54720/bajhss/2025.070402 **Pages: 15-22**

نشأة البحرية العثمانية حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي

م. م. سيف علي حسين
كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة ديالى، ديالى، 32001، العراق.
siafassd@gmail.com

الملخص
تعد البحرية العثمانية أحدى مؤسسات الجيش العثماني التي ساعدتهم في مد نفوذهم في مناطق البحار في أوروبا والبحر المتوسط والبحر الأحمر وحتى الخليج العربي والمحيط الهندي، إذ ترجع نشأة البحرية العثمانية إلى رغبة العثمانيين في القضاء على أسطول البندقية، والتي استحوذت على أجزاء كبيرة من ممتلكات الدولة البيزنطية، فقد استطاعت الدولة العثمانية أن تنشأ أسطولاً بحرياً لم يلبث أن تفوق وقفز إلى مصاف أساطيل الدول الكبرى، إذ أنها أثبتت تمتلك مقومات الدولة البحرية، فبنت السفن بأنواعها المختلفة التجارية منها والحربية.
الكلمة المفتاحية: البحرية العثمانية، توسع، غاليبولي، أسطول، القسطنطينية.

The Emergence of the Ottoman Navy Until the End of the Fourteenth Century AD

Asst. Lect. Saif Ali Hussein
University of Diyala, College of Education for Humanities, Diyala, 32001, Iraq.
siafassd@gmail.com

Abstract

The Ottoman Navy is one of the Ottoman army institutions that helped them extend their influence in the sea areas in Europe, the Mediterranean, the Red Sea, even the Arabian Gulf and the Indian Ocean. The Ottoman Empire was able to establish a naval fleet that soon surpassed and jumped to the ranks of the fleets of the major countries، as it proved to possess the elements of a maritime state, so it built ships of various types, including commercial and military.

Keyword: Ottoman Navy, expansion, Gallipoli, fleet, Constantinople.

المقدمة

نشأة البحرية العثمانية بدأت في القرن الرابع عشر، مع تأسيس الدولة العثمانية، وتطورت تدريجياً مع توسع الدولة وازدياد أهمية السيطرة على البحار، استخدمت البحرية العثمانية في البداية لفتح المناطق الساحلية المجاورة للقسطنطينية، ثم توسعت مهامها لتشمل تأمين طرق التجارة والملاحة والمشاركة في المعارك البحرية.

اشكالية الدراسة

البحرية العثمانية لم تظهر فجأة بقوتها المعروفة، بل تطورت تدريجياً على مر السنين، مما يتطلب دراسة متأنية لمراحل تطورها المختلفة.

فرضية الدراسة

إن نشأة الأسطول العثماني لم تكن مجرد استجابة لحاجة عسكرية بحرية، بل كانت انعكاساً لتطور استراتيجي في السياسة العثمانية تجاه البحر المتوسط، ودافعًا رئيسيًا في توسع الدولة العثمانية سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا، وعلى ذلك فان الدراسة طرحت الاسئلة الاتية لتعزيز الفرضية:

1. إن الأسطول نشأ فقط للدفاع عن السواحل.
2. أن الدولة العثمانية رأت في البحر وسيلة للتوسع وبسط النفوذ.
3. تغير فكرة الدولة العثمانية من خلال السيطرة على طرق التجارة البحرية على الساحل اليوناني والبحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي.
4. أداة سياسية ودبلوماسية في مواجهة القوى البحرية الأوروبية مثل البندقية وجنوا ثم لاحقًا إسبانيا والبرتغال.

منهجية الدراسة

اعتمد الباحث على المنهج التاريخي الوصفي في تناول التطورات والاحداث التي اشتملت عليها الدراسة التي امتدت خلال المدة 1258-1394م تُمثل المراحل الأولى من نشأة الدولة العثمانية وتطورها، وهي تتضمن نشأة البحرية العثمانية المبكرة وتوسعت الدولة من إمارة صغيرة إلى دولة سميت بـ"الدولة العثمانية.

قسمت الدراسة الى مبحثين تناول المبحث الأول(نشأت الدولة العثمانية وتوجهاتهم البحرية) اهتم المبحث بدراسة عن نشأة الدولة العثمانية والاندفاع من البر الى البحر في بدايات القرن الرابع عشر الميلادي، ولأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية خصوصاً في عهد السلطان أورخان وقد تعرّف العثمانيون على البحر لأول مرة ووضعوا أولى سفنهم في إمارة قره مرسل الأمر الذي أوجد الحاجة الماسة الى قوة بحرية تحمي مناطق نفوذهم، أما المبحث الثاني الذي اهتم بدراسة (الاهتمام البحري العثماني منذ عهد السلطان مراد الأول وحتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي) حيث امتدت فتوحات السلطان مراد الاول في الاناضول والبلقان حيث فتح مدينة ادرنه أذ شهد عهده تطوراً ملحوظاً في الشؤون الداخلية، ادرك السلطان العثماني مراد الأول أهمية تعزيز القوة العسكرية البحرية لدولته، كما أسس دورًا للصناعات البحرية في كل من إزمير وكميلك، وأنشأ ثكنات عسكرية خاصة بالبحارة في منطقة غاليبولي. اعتمدت الدراسة على عدد من المصادر كان اهمها كتاب إسماعيل سرهنك، حقائق الاخبار عن دول البحار والذي افاد الدراسة في الموضوع الذي يخص عن نشأة الدولة العثمانية وبداية ظهور البحرية العثمانية، والحصول على معلومات عن نشأة الاسطول العثماني وتوسعاته في القرن الرابع عشر الميلادي.

المبحث الأول

نشأت الدولة العثمانية وتوجهاتهم البحرية

شهد سقوط الدولة العباسية في عام 1258م خسارة العرب مرجعتيهم السياسية، التي كانت مستمدة من الخلافة العباسية، هذا الحدث دفع العالم العربي إلى دوامة من الفوضى الشديدة، حيث سادت الانقسامات الداخلية في المشرق والمغرب العربي، لكن الهزيمة التي تعرض لها المغول على يد المماليك في معركة "عين جالوت" بفلسطين عام 1260م كانت بمثابة نقطة تحول، حيث بدأت الهيمنة المملوكية على مصر والشام تتثبت، تبع ذلك إقرار مناطق مثل الحجاز واليمن بالتبعية السياسية لهم، مما جعل القاهرة مركزاً جديداً للمرجعية العربية في المناطق الخاضعة لسيطرة المماليك [1].

تعود جذور الدولة العثمانية إلى بداية ظهور الأسرة مع سليمان شاه، الجد الأعلى لعائلة العثمانيين، الذي ينتمي إلى عشيرة تُعرف باسم "قابي ألب"عقب وفاته شهدت العائلة انقساماً إلى مجموعتين: الأولى عادت إلى موطنها الأصلي في إيران، بينما بقيت المجموعة الثانية تحت قيادة ابنه أرطغرل، الذي يُعد المؤسس الحقيقي للأسرة العثمانية في منطقة الأناضول، لعب أرطغرل دوراً محورياً في دعم جيش السلطان علاء الدين كيقباد(1219-1237م) علماً ان علاء الدين كيقباد الاول هو علاء الدين كيقباد بن كيخسرو ولد عام 1188 اصبحت حياته المهنية "عاهل" و"سلطان" ، شغل منصب سلطان سلاجقة الروم في الفترة بين 1220 و1237م، وسّع علاء الدين كيقباد حدود السلطنة على حساب جيرانه وخصوصاً إمارات المنكوجكيين والأيوبيين كما دعم وجود السلاجقة في البحر المتوسط بعد سيطرته على ميناء ألانيا، والذي سمي هكذا على اسم "علاء" فيما بعد تكريماً له، كما أخضع جنوب شبه جزيرة القرم لسيطرة السلاجقة لفترة وجيزة من الزمن بعد غزوه لسوداك (Sudak) على البحر الأسود، ويلقب السلطان بـ"كيقباد العظيم" يمثل عهد كيقباد ذروة القوة والنفوذ السلجوقي في الأناضول، وكان كيقباد يعد ألمع أمراء سلالة سلاجقة الروم، تُوفي السُلطان 1237م فكانت وفاته

بداية انحدار دولة سلاجقة الروم لِضعف خُلفائه، ومن المعروف أيضًا أنَّ كيقُباد كان آخر سلاطين السلاجقة استقلالًا[2]، خلال حملاته العسكرية في تلك المنطقة، تقديراً لجهوده، منحه السلطان قطعة أرض تقع في الجزء الغربي من الأناضول، وتشمل سهول سكوت والمنحدرات الشرقية لجبال طوماتج بمحاذاة الحدود البيزنطية، علاوة على ذلك أسبغ عليه السلطان لقب "أوج بك"، وهو منصب يحمل دلالة خاصة في تقاليد الدولة السلجوقية حيث يشير إلى وظيفة "حارس الحدود"، مما يؤكد المكانة الاستراتيجية والدور العسكري والدفاعي الذي أسند إليه في سياق الحكم السلجوقي، عندما توفي أرطغرل عام 1288م، تولّى عثمان بن أرطغرل(1299-1326م) أكبر أبنائه وأبرزهم مكانة قيادة زمام الأمور، لم يمضِ وقت طويل حتى ازدادت سلطته ونفوذه بعد أن استطاع فتح قلعة قره حصار، وفي عام 1289م نتيجة لهذا الإنجاز، قام السلطان علاء الدين بمنحه لقب "بيك"، ومنحه السيطرة على جميع الأراضي والقلاع التي استولى عليها، بالإضافة إلى ذلك أذن له بإصدار العملة باسمه، وذكر اسمه في خطبة الجمعة، مما عزز مكانته السياسية والدينية في المنطقة[3].

بعد وفاة السلطان علاء الدين في عام 1299م، اجتمع الأمراء وزعماء القبائل لبحث مسألة خلافته، واستقر رأيهم على اختيار عثمان ليكون وريثًا للسلطة عثمان سرعان ما فرض سيطرته على جميع الأراضي وأطلق على نفسه لقب(بادشاه) علماً ان باتشاه يطلق على الحملات العسكرية التي يكون السلطان العثماني "البادشاه" قائدها العام في علم الاصطلاحات الفنية العثمانية بالحملة الهمايونية وكانت حملة اشكودرا في 1478م هي الحملة (25) للسلطان محمد الفاتح وهي اخر حملاته، وذلك ان حملته (26) لم تكتمل بسبب وفاته[4]، جعل مدينة "يكي شهر" مركزًا لإدارته وبنى فيها قصره، وبدأ باتخاذ تدابير لحمايتها وتعزيز تحصينها، بعد مدة قصيرة، تمكن من احتلال مدينة نيقيا، مستغلًا حالة الفوضى والإهمال التي كانت تعصف بالمناطق البيزنطية في الأناضول، تدريجيًا، وسّع عثمان نفوذه واستغل التفكك الذي عانى منه البيزنطيون بشكل ذكي لتحقيق مكاسب إضافية، أول مواجهة حقيقية بين البيزنطيين وعثمان حدثت عام 1301م في منطقة قارين حصار، إثر تحركات عثمان القريبة من نيبيا، من حسن حظ العثمانيين في هذا الوقت أن الإمبراطورية البيزنطية كانت غارقة في مشاكل داخلية عديدة، إذ كانت العاصمة البيزنطية تعاني من اضطرابات وقلاقل سياسية، بالإضافة إلى الصراع المستمر مع منافسيها من الإمارات الإسلامية المنتشرة على حدودها في الأناضول والبلقان، هذه الظروف مهّدت الطريق لعثمان لتوسيع سلطاته وترسيخ حكمه في المنطقة[5].

في ظل تلك الظروف، عجزت الإمبراطورية البيزنطية عن اتخاذ إجراءات فعّالة ضد توسع العثمانيين، مما أدى إلى خسارة العديد من المناطق لصالحهم، أصبحت المدن الواقعة تحت التهديد العثماني مضطرة إلى الاعتماد على قوات محلية للدفاع عن نفسها، ومن بين المدن التي سقطت في أيدي العثمانيين مدينة بورصة في عام 1329، تلتها مدينة نيقيا في عام 1331، وفي عام 1337م نجح العثمانيون في السيطرة على مدينة نيقوميديا وفي عام 1360م بسط العثمانيون سيطرتهم على أراضي إمارة قره سي، وتمكنوا خلالها من إضعافها وتفكيكها بشكل كامل[6].

ولم ترث الدولة للعثمانية عن اسلافها أي نوع من التقاليد البحرية، فكل من الأسرة السلجوقية وسليلتها في قونية (سلاجقة الروم) قد أقامتا حكميهما على مجرد الحرب براً[7]، فالعثمانيون كما هم مشهورون، بدأوا توسعاتهم من البر نحو البحر، ففي مدة ترسيخ حكمهم في أسكي شهر، لم تكن لديهم حاجة كبيرة للبحر مقارنة بأهمية القوات البرية، نظرًا لكون الإمارة ذات طابع داخلي، لذلك يُعتبر تأسيس الدولة العثمانية متجذرًا بشكل كبير في الاعتماد على القوة البرية خلال تلك المرحلة في مرحلتها الاولى بأنها دولة بر أي انها تفتقر الى الإرث البحري، وقد تعرّف العثمانيون على البحر لأول مرة ووضعوا أولى سفنهم في (قره مرسل)، بعد إلحاقهم للإمارات الاناضولية التي كانت لها امتداد الى سواحل البحار خاصة بحر مرمره وبحر إيجة، الأمر الذي أوجد الحاجة الماسة الى قوة بحرية تحمي مناطق نفوذهم[8].

أما عن موقف الدولة العثمانية من البحر بعد تلك التطورات، فان اجتياحهم للأناضول قد قربهم من منطقة لها تاريخ بحري طويل، فمنذ وصولهم سواحل آسيا الصغرى واستيلائهم على سواحلها وفر لهم البحارة والسفن، ولكن كانت هناك أكثر من مشكلة تواجههم في عبور البحار التي كانت تحيط بآسيا الصغرى، لأن الامبراطورية البيزنطية والامارات الايطالية التي لها تاريخ طويل في الحروب البحرية عارضت حينها توسعهم شمالاً[9].

على الرغم من التوسعات العسكرية التي شهدتها الدولة العثمانية، فإن اهتمام العثمانيين تركّز بشكل أساسي على تطوير أنماط الجيش التقليدية دون أن يولوا عناية كافية للقطاع البحري، ففي عهد السلطان مراد الأول لم تشهد الدولة العثمانية سوى تطورات محدودة للغاية في المجال البحري، حيث افتقر المحاربون العثمانيون إلى الخبرة اللازمة للانخراط في الملاحة والاستعداد للحروب البحرية، لقد اعتُبر البحر بيئة غير مألوفة واختلفت إلى حدّ كبير عن ميادين الحرب البرية التي كانوا يجيدونها، هذه السلبية البحرية انعكست في غياب أي نشاط بحري منظّم أو استراتيجية بحرية متقدمة خلال تلك الحقبة، فلم تكن لديهم سياسة واضحة تعنى بتطوير

قدراتهم البحرية أو الاستفادة من الموارد البحرية في تحقيق أهدافهم العسكرية والاستراتيجية، بدلاً من ذلك انحصر النشاط البحري لبعض رعايا الدولة العثمانية في أعمال القرصنة والاستيلاء على السفن التجارية المحملة بالبضائع القيّمة، وذلك بهدف تحقيق المكاسب المالية، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأنشطة كانت غالباً موجّهة ضد السفن التي تعود ملكيتها لغير المسلمين، الأمر الذي يعكس النزعة الاستغلالية التي طغت على هذا النوع من النشاط الغارق في العشوائية خلال تلك الحقبة[10].

على الرغم من ذلك، تُظهر الوثائق التاريخية المتعلقة بعهد المؤسس عثمان أنه أدرك مبكرًا دور السفن الحربية في تحقيق طموحاته التوسعية داخل الأناضول، خصوصاً على حساب الدولة البيزنطية التي كانت تعاني آنذاك من التدهور والتفكك. وفي هذا السياق، استعان بقوات بحرية قوامها السفن الحربية التابعة لأمراء آيدين وصاروخان بهدف شن هجمات على الجزر اليونانية. ومع ذلك، فإن هذا النوع من التعاون كان يقتصر على الاستعانة المؤقتة بتلك السفن دون أن يؤسس قاعدة بحرية عثمانية متكاملة ذات معالم واضحة. يمكن القول إن الجذور التاريخية للبنية البحرية العثمانية، ودورها الفاعل في دعم قيام الدولة وتوسعها الإقليمي، لم تتبلور بشكل ملموس خلال تلك الحقبة المبكرة[11].

ويعتبر السلطان أورخان بن عثمان (1326–1359م) المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية، حيث عمل على سن الدستور وتقسيم السلطات وتنظيم الدولة سياسياً وادارياً واقتصادياً، كما أنه أسس جيشاً نظامياً بعد أن كان والده عثمان يعتمد على جيش المتطوعين، وزاد عدد هذا الجيش، وحرص على تزويده بثقافة جهادية تضمن له التفوق فيما يخوض من معارك، وعلى أثر ذلك استهل مدة حكمه بالاستيلاء على بورصا عام 1326م ذات الموقع الاستراتيجي على الساحل الجنوبي الشرقي لبحر مرمرة حتى اتخذها عاصمة لدولته، بعد أن سار على خطى والده عثمان في الاستعانة بالسفن الحربية التابعة لبعض الأمراء الخاضعين للدولة العثمانية، ليطل من بورصا مهدداً بسفنه الحربية المتواضعة سواحل البحر الأسود على امتدادها، ومما ساعده ذلك أيضاً في فتح مدينة نيقوميديا عام 1327م، وهي من أهم المدن البيزنطية في آسيا الصغرى، ثم استولى على مدينة نيقية عام 1330م[12].

كما أن عمليات التوسع والامتداد الجغرافي للعثمانيين نحو البلقان بدأت في عهد أورخان نتيجة لضمهم إمارة قره سي، وذلك في عام 1334م فاستفادوا من قدراتها على صناعة السفن مما جعل الساحل الجنوبي لبحر مرمرة عثمانياً لتحكمهم على مضيق الدردنيل، فتم لهم السيادة على المنطقة المواجهة لأوروبا، ففي عام 1337م حاول أورخان مهاجمة القسطنطينية وتثبيت أقدام العثمانيين في تراقيا (الروملى) بوساطة أسطول صغير يتكون من ست وثلاثين سفينة لكنه هزم أمام البيزنطيين، وكانت لأمارة قرة سي أسطول حربي وجنود بحرية واميرالات مجربون، إذ طور سليمان باشا الأسطول البحري العثماني، وعقد مجلساً مع أشهر قواده، فأتفقوا على عمل صالات (اكلاك)، للعبور بها وبعد إنشائها، جهز ميناء (آيدنجق) ليكون قاعدة بحرية لهذا الأسطول، وبهذا الأسطول اجتاز سليمان باشا مضيق الدردنيل الى الساحل الاوروبي (الروملى) تنفيذاً لأوامر أورخان، وعقب عبورهم بقليل إستولى على حصن تزم، ثم غاليبولي عام 1357م عقب زلزال شديد أصابها بالخراب، فأنهارت أسوارها وهجرها أهلها، فدخلها العثمانيون دون عناء، وهي أول أرض يستولون عليها في أوربا وعلى عدة أماكن من بلاد الروملى وضمها الى ممتلكاتهم وانشاء عدة صنادل (زوارق) في ميناء غاليبولي، ومما يذكر ان أمراء إمارة قره سي كانوا على معرفة بأحوال غاليبولي وتراقيا عن كثب، لهذا أدوا دوراً مهماً في دخول العثمانيين الى روملى وتثبيت أقدامهم فيها[13].

ولكي يتمكن العثمانيون من التوسع أكثر فأكثر في فتوحاتهم في الروملى، ولمساندة تلك الفتوحات التي كانت بحاجه الى قوة بحرية قوية لهذا أنشأت في غاليبولي(ترسانة) عنيت بالأسطول البحري لما مست الحاجة اليها[14]. إزاء ذلك واصل العثمانيون فتوحاتهم فسيطروا على عدد من المدن منها مالاجره، وبولار (مفتاح شبه جزيرة غاليبولي)، وابسالا، وردستو، والسهل الاوروبي على بحر مرمره، وبهذا الفتح أظهر الأمير سليمان باشا لجميع الدول الاخرى ما للدولة الفتية من السطوة والاقتدار، إذ كان عبور العثمانيين الدردنيل واستيطانهم في أراضي أوربية ذا أهمية حاسمة في تحول الدولة العثمانية من إمارة حدودية صغيرة وغير مهمة الى دولة تضم البلقان وأسيا الصغرى، وهكذا أصبحت القسطنطينية مقطوعة عن أوربا وتحت رحمة العثمانيين، وأصبحت غاليبولي أول قاعدة حربية عثمانية في أوربا، ومنها انطلقت الحملات الأولى التي توجت في النهاية بالاستيلاء على شبه جزيرة البلقان[15]، ويُعتبر هذا العبور نقطة انطلاق التاريخ البحري للدولة العثمانية، حيث شكل انتقال العثمانيين إلى الروملي ودخولهم إلى منطقة البلقان والقارة الأوروبية أحد أبرز الأحداث التاريخية، لم يقتصر تأثيره على تأمين تأسيس الدولة العثمانية فقط، بل تجاوز ذلك ليُحدث تحولاً عميقاً في مسار التاريخ الأوروبي ويُغير مصير القوى الكبرى في تلك القارة[16].

يتضح لنا مما سبق، نشأة الأسطول العثماني تعود إلى القرن الرابع عشر الميلادي، مع بداية الدولة العثمانية، حيث تمثل جزءاً هاماً من القوة العسكرية للدولة. كان الأسطول العثماني في البداية بسيطاً، ولكنه تطور وتوسع مع مرور الوقت ليصبح قوة بحرية رئيسية في منطقة البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والبحر الاحمر والخليج العربي.

المبحث الثاني

الاهتمام البحري العثماني منذ عهد السلطان مراد الأول وحتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي

عندما تولّى السلطان مراد الأول (1360-1389م) مقاليد الحكم، كان العثمانيون قد رسّخوا وجودهم النهائي على الساحل الأوروبي، معتمدين على حصن غاليبولي كنقطة استراتيجية لانطلاق عملياتهم العسكرية، خلال مدة حكمه تمكن السلطان مراد الأول من تحقيق هدفه الرئيسي المتمثل في توسيع نفوذ الدولة العثمانية في منطقة البلقان، وقد تمثلت أهم إنجازاته في نقل العاصمة إلى مدينة أدرنة، والاستيلاء على كل من تراقيا ومقدونيا وبلغاريا، تبع ذلك توطين أعداد كبيرة من المهاجرين الأتراك في تلك المناطق لتعزيز السيطرة العثمانية هناك، إضافة إلى ذلك، عزّز السلطان مراد اهتمامه بالقوة البحرية ورفع من مستوى الاعتماد عليها كأداة استراتيجية، وهو ما تجلى بصورة واضحة في الاستيلاء على مدينة أدرنة البيزنطية المحصنة عام1361م[17].

قام البنادقة بتسيير أسطول حربي ضخم مكوّن من(60) سفينة لمهاجمة العثمانيين، وقد انضم إلى هذا الأسطول عدد من السكان المحليين، ثم توجهوا جميعًا للهجوم على القوات العثمانية الموجودة في منطقة الروملي، غير أنّ الجيش العثماني واجههم بقوة كبيرة، مما دفعهم إلى التقهقر بعد الصدمة الأولى، ساعين إلى النجاة من الهجمة، وبعد هذه المواجهة أدرك السلطان العثماني مراد الأول أهمية تعزيز القوة العسكرية البحرية لدولته، فبدأ بتوسيع نطاق "أوجاق الانكشارية" اوجاق: معنى الموقد، ففي البداية كان يستخدم للدلالة على البيت أو المسكن، ثم توسع ليشير إلى الجماعات التي تجتمع في مكان واحد، لاحقاً أخذ المصطلح معنىً أوسع ليصف طائفةً من أرباب الحِرف، وفي العهد العثماني أصبح يُستخدم للإشارة إلى أصناف معينة من الجند، تنوعت استخداماته لتشمل تسميات مثل "أوجاق الانكشارية"، "أوجاق الغرب"، و"أوجاق التنفكجية"، مما يعكس اختلاف الهيئات العسكرية والتنظيمية التي تنضوي تحت هذا المسمى. أما مصطلح "الأوجاقي" فقد أصبح يُطلق اصطلاحاً على الجندي أو العسكري بشكل عام، اما الإنكشارية: كلمة تركية أصلها ينكجري او (يني تشري) ومعناها الجنود الجدد أطلق هذا الاسم على فرقة المشاة النظاميين التي كونها العثمانيون في القرن الرابع عشر[7] ، حيث أمر ببناء عدد من السفن ونظم قوة بحرية متخصصة من البحارة [18].

كما أسس دورًا للصناعات البحرية في كل من إزمير وكميلك، وأنشأ ثكنات عسكرية خاصة بالبحارة في منطقة غاليبولي، وبهذه الإجراءات أصبح للعثمانيين قوة بحرية كبيرة أثارت الخشية بين الدول الأوروبية، وقد تجلّى ذلك في مسارعة حاكم جمهورية راجوزا إلى السعي لعقد اتفاق مع السلطان مراد الأول بموجب هذا الاتفاق، الذي يعدّ أول معاهدة بين الدولة العثمانية والدولة المسيحية في عام 1365م، تعهدت جمهورية راجوزا بدفع جزية سنوية قدرها (500) دوكا، ذهبية مقابل وضعها تحت حماية الدولة العثمانية، ويُعد هذا الاتفاق خطوة لافتة أسهمت في تعزيز تجارة الشرق، ويُمثّل اعتراف راجوزا بالسيادة العثمانية نموذجًا للمسار الذي اتبعته دول البلقان الأخرى لاحقًا. كما أدى هذا الاعتراف إلى دمج اقتصاد راجوزا ضمن الإطار الاقتصادي للدولة العثمانية، مما عزز الروابط بين الجانبين وأسهم في تكوين نمط جديد من العلاقات بينهما [19].

أدى انتشار ونمو الدولة العثمانية إلى إطلاق دعوات لحملة صليبية جديدة بقيادة البابا أوربان الخامس (1326-1370م) وجه البابا رسائل إلى ملوك أوروبا يحثهم على تنظيم حملة ضد المسلمين، لكن مساعيه باءت بالفشل، إذ لم تلقَ استجابة من فرنسا وإنجلترا بسبب انشغالهما بحرب المائة عام(1337-1453م) التي كانت دائرة بينهما [20]، إلا أن حاكم (سافوي أماديوس السادس) لبّى الدعوة وقاد حملة انطلقت من مدينة البندقية في حزيران 1366م على متن أسطول بحري، تمكن أماديوس من انتزاع مدينة غاليبولي من قبضة العثمانيين، واستولى على عدة قلاع على الساحل الأوروبي لبحر مرمرة، كما قام بتدمير بعض المدافع العثمانية، ورغم هذه الإنجازات وجد أماديوس نفسه بمفرده أمام السلطان العثماني مراد الأول، مما اضطره إلى التراجع والعودة إلى إيطاليا، لتنتهي الحملة دون تحقيق أهدافها الرئيسية، ظل الخطر العثماني ماثلًا أمام القسطنطينية، بينما اتخذ البنادقة موقفًا مصلحيًا، مفضلين التفاهم مع العثمانيين حفاظًا على مصالحهم التجارية مع الشرق بشكل عام[21].

في فترة لعب فيها الأسطول العثماني دوراً محورياً في تعزيز الروابط بين شطري الأراضي العثمانية الممتدة من الأناضول الآسيوي إلى أوروبا الشرقية، قام السلطان مراد الأول ببناء سفن على نفقته الخاصة في غاليبولي بعد استعادتها من البيزنطيين عام 1377م. رغم ذلك، كانت هذه السفن مجرد دعم إضافي للسفن التي كانت تحت إدارة قباطنة مستقلين يقيمون في الموانئ التي سيطر عليها العثمانيون. هذا الدور الحيوي للأسطول ساهم بشكل كبير في تمهيد الطريق نحو فتح بلغاريا وصربيا [22].

واصل العثمانيون تحت قيادة السلطان مراد الأول توسيع نفوذهم في أوروبا على حساب الإمبراطورية البيزنطية والصرب، وقد كانت إمبراطورية الصرب هي الأكثر تضرراً من هذا التوسع الإقليمي، حيث اعتمدت بشكل كبير على جيوشها البرية فقط دون دعم بحري، هذا الاعتماد أحادي الجانب سهّل للعثمانيين القضاء عليها دون الحاجة إلى استخدام قوات بحرية، قاد السلطان مراد الأول الجيوش العثمانية ضد تحالف دول البلقان بقيادة لازار ملك الصرب الذي شكّل حلفاً مسيحياً عام1378م، انتهى هذا الصراع الحاسم بمعركة قوصوه بوليه Cosouopolie في السادس من تموز عام 1389، وهي المعركة التي أغلقت باب استقلال صربيا بشكل نهائي، أسفرت المعركة عن مقتل ملك صربيا لازار واستشهاد السلطان مراد الأول رغم انتصار القوات العثمانية[23]، وبالرغم من فقدان القائد العثماني في تلك المعركة، إلا أن ثمرة النصر ظلت قائمة، حيث عزز هذا الحدث النفوذ الجيوسياسي للدولة العثمانية وتمكّن العثمانيون من فرض هيمنتهم على صربيا لعدة قرون لاحقة[25]، استمر العثمانيون بقيادة السلطان مراد الاول في تحقيق انتصارات متكررة على دول أخرى مثل الولاشيين، الملدافيين، المجريين وغيرها من القوى التي اعتمدت على الجيوش البرية وحدها، أما الإمبراطورية البيزنطية فقد اختلفت عن هذه الدول بسبب امتلاكها لشواطئ طويلة وعدد كبير من الجزر، وهو ما فرض عليها ضرورة الاحتفاظ بأسطول بحري قوي، هذا التحدي الاستراتيجي وضع قيوداً أمام العثمانيين، حيث لم يكن بإمكانهم تحطيم القوة البيزنطية البحرية إلا من خلال تطوير أسطول قوي يضاهي متانة الأسطول البيزنطي[24].

بعد معركة كوسوفو هي المعركة التي وقعت عام 1389 بين الجيش العثمانيين بقيادة السلطان مراد الاول وجيوش الصليبين المكونة من الجيش الصربي والألباني بقيادة ملك الصرب ستيفان أوروس الخامس، حدثت المعركة مكان يسمى سهل قوصوه، ادت هذا المعركة الى دخول العثمانيين صربيا وكوسوفا تحت حكم الدولة العثمانيين[25] الأولى التي وقعت في عام 1389م تمكن العثمانيون سريعًا من إحكام سيطرتهم على صربيا، حيث نفذوا هجمات مدمرة عززت مكانتهم في المنطقة، ومع تعاظم انتصاراتهم في البلقان، نجحوا في توسيع نفوذهم داخل الأناضول، مستحوذين على أنقرة وضواحيها بالإضافة إلى أجزاء كبيرة من الأراضي التابعة للإمارات الاخرى، تولى الحكم بايزيد الأول الذي أطلق عليه الأتراك لقب "يلدرم"، عقب استشهاد والده في معركة كوسوفو، حكم بايزيد بين عامي 1389 و1402م، وأصبح وريثًا لانتصارات والده التي تحقق بثمن باهظ، افتتح عهده بإخضاع مملكة الصرب، وعيّن الأمير ستيفان بن لازار Stephan Lazar حاكمًا عليها، بشرط أن يدفع الجزية ويعترف بالتبعيات العثمانية[28].

خصص السلطان في تلك المدة اهتمامًا كبيرًا لتعزيز الأسطول البحري، إذ عمل على زيادة عدد السفن الحربية حتى بلغ مجموعها أكثر من ستين قطعة ضخمة، إلى جانب ذلك عمل على توسيع ميناء غاليبولي بحيث أصبح قادرًا على استيعاب سبعين سفينة بكفاءة وفي عام 1391م، توجه إلى آسيا الصغرى (الأناضول) [26] وضم مدينة الآشهر، التي كانت آخر معقل للبيزنطيين في تلك المنطقة. تزامنًا مع هذا الفتح، شعر أمراء "آيدين ومنتشيا وصاروخان" بالخطر المحدق بقدوم السلطان بايزيد الأول مما دفعهم للتنازل عن أملاكهم ومغادرتهم ، مما أسفر عن السيطرة العثمانية على أبرز موانئ بحر إيجة وبفضل هذه الخطوات، استغل العثمانيون ترسانات هذه الإمارات البحرية لتعزيز وجودهم في بحر إيجة ووضع قواعد لقواتهم البحرية هناك ، هذه التحركات أثارت توترات جديدة بين العثمانيين من جهة، والقوى البحرية الأخرى مثل البندقية وجنوة من جهة أخرى، رغم أن البحرية العثمانية لم تشهد تطورًا ملموسًا خلال عهد السلطان بايزيد الأول، إلا أن تلك الحقبة مثّلت البداية الحقيقية لإدراك الإمارة العثمانية لأهمية وجود قوة بحرية قوية تلبي احتياجات توسعاتها المتزايدة[27].

اعتبر مرحلة تأسيس البحرية العثمانية بشكل فعلي قد بدأت خلال حقبة حكم السلطان بايزيد الأول، بعد استيلاء الدولة العثمانية على الإمارات التركية الساحلية، وفي جنوب هذه الإمارات الثلاث، نجح السلطان بايزيد الأول في السيطرة على مدينة أنطاليا في عام 1391م، وهي الواقعة عند رأس الخليج الذي يحمل اسمها أنطاليا، التي كانت تابعة لمدينة قونية، مثلت آخر مدن إمارة تكه، وأصبحت بفضل هذا الإنجاز أول ميناء عثماني على البحر الأبيض المتوسط، مما أسهم في تعزيز قوة الدولة البحرية وتوسيع نفوذها في المنطقة [28].

في عهد السلطان بايزيد الأول، أدرك العثمانيون الأهمية الاستراتيجية لمضيق الدردنيل، ما دفعهم إلى تأسيس ترسانة وقاعدة بحرية في مدينة غاليبولي عام 1390م، وقد اختيرت هذه المنطقة نظراً لكونها موقعاً استراتيجياً يسيطر على المدخل إلى مضيق الدردنيل من بحر مرمرة، كان الهدف الأساسي من إنشاء القوة البحرية تحقيق مجموعة من الأهداف ذات الطابع التوسعي والاستراتيجي، شملت تعزيز أمن السواحل الغربية، وتوسيع النفوذ العثماني في منطقة البلقان، فضلاً عن السيطرة على الأجزاء الغربية من تلك المنطقة، بما في ذلك أطراف بحر إيجة والبحر الأيوني، كذلك سعت السياسة العثمانية عبر هذه المبادرة إلى القضاء على بقايا السيادة البيزنطية في المناطق المتبقية تحت نفوذهم، بالإضافة إلى طرد القوى الأوروبية المؤثرة مثل البنادقة والجنويين، الذين تواجدوا في تلك المناطق منذ حقبة الحروب الصليبية[29].

تشكلت فئة خاصة من العزاب للعمل في السفن ضمن الدولة العثمانية، كما تم توظيف رجال مقاتلين للانضمام إلى القوات البحرية، على الرغم من هذه الجهود لم تكن القوى البحرية العثمانية على مستوى يمكن مقارنته بالدول البحرية الكبرى مثل البنادقة والجنوبيين، ففي عام 1391م أقدمت القوات البحرية العثمانية المكونة من(60) سفينة على مهاجمة جزر ساقز وكيكلاد، التي كانت تحت سيطرة اللاتين الكاثوليك آنذاك، هذا التحرك العسكري كان بمثابة رسالة واضحة من السلطان بايزيد الأول إلى الجمهوريات البحرية الكبرى مثل "البندقية وجنوة وإيطاليا"، مفادها أنه يستعد لمواجهة بيزنطة، في الوقت ذاته عمل السطان على تعزيز نفوذ الدولة العثمانية في الأناضول، قبل أن يعود إلى منطقة البلقان في عام 1393م حيث سعى لترسيخ سيطرة مركزية على إمارات السلاف وتوسيع النفوذ باتجاه الشمال، واصل السلطان بايزيد الأول فتوحاته في مناطق الروملي، وفي عام 1394م استولى على مدينة سلانيك، التي مثلت قاعدة بحرية مهمة وعاصمة مقدونيا البحرية في ذلك الوقت، هذه السيطرة أثارت قلق أباطرة القسطنطينية، مما دفع الدول الأوروبية الكبرى كالبندقية وفرنسا وجنوة وإسبانيا إلى التوحد لمواجهة التوسع العثماني بريًا وبحريًا، وأرسلت هذه الدول تحالفًا من أساطيلها لمحاولة استعادة مدينة سلانيك(عاصمة مقدونيا البحرية)، وإخراج العثمانيين منها، إلا أن المقاومة العسكرية العثمانية كانت قوية لدرجة أن قوات التحالف اضطرت إلى التراجع والهزيمة، متكبدة خسائر كبيرة دون تحقيق أهدافها المعلن[30].

ويتضح لنا مما سبق، اكتسب السلطان بايزيد الصاعقة شهرة واسعة في العالم الإسلامي باعتباره مجاهدًا بارزًا، واقترب تحقيق حلم فتح القسطنطينية، ومع ذلك شهد الأسطول العثماني بداية تكوينه وتوسعه، حيث قام العثمانيون بتأسيس أول ترسانة بحرية لهم في قرة مرسل وبدأوا في بناء قوة بحرية لتأمين فتوحاتهم البحرية.

الخاتمة

تتضح مـن بحثنا استنتاجات تتمثل بما يأتي:

1. علـى الرغم مـن اهتمام العـثمانيين مـنذ نشأتهم بالجيش الذي يعد ركيزة توسعاتهم، إلا أن إنشاء الأسطول العـثماني جاء متأخراً عن باقي الأسلحة وصنوف الجيش العـثماني.
2. لـم يأتِ الاسطول العـثماني بصورة واضحة إلا بعد الاحتكاك مع البنادقة فـي الجانب الاوروبي، لذا جاء الأسطول العـثماني علـى غرار الأساطيل الإيطالية.
3. اعتمد العـثمانيون علـى مدينـة غاليبولي المهمة والمميزة فـي دور صناعة السفن.
4. اعتمدت البحرية العـثمانية فـي بداياتها علـى قراصنة البحر مـن أبناء المـناطق التي خضعت للعـثمانيين.
5. أن الأسطول البحري العـثماني وصل بعد فتح القسطنطينية إلى ضعف ما كان عليه مـن قوة فـي العهود السابقة.
6. ذاعت شهرة السلطان بايزيد الصاعقة في العالم الاسلامي كمجاهد كبير وأصبح فتح القسطنطينية قاب قوسين أوادنى، غير إن التقدم الذي أحرزه الاخير جعله يقف وجها لوجه مع الخطر المغولي الجديد القادم من الشرق.
7. أن تشكيل الأسطول البحري العثماني واستخدامه في الفتوحات هو الذي أدى دوراً مهما في توسيع الدولة ونقلها من الأناضول إلى إستانبول وفتحها عام ١٤٥٣ على يد السلطان محمد الفاتح وكان من أهم القادة البحرية سليمان بلطة أوغلو.

المصادر

[1] الشيخ، رأفت، (1992م)، تاريخ العرب الحديث، دار الثقافة، القاهرة.
[2] ابن بيبي، ناصر الدين حسين بن محمد بن علي الجعفيري الرغدي، أخبار سلاجقة الروم، ترجمة: محمد سعيد جمال الدين، ط2، مركز القومي للترجمة، القاهرة ،2007، ص79-80.
[3] أبو غنيمة، زيادة، (1983م)، جوانب مضيئة من تاريخ العثمانيين، دار الفرقان.
[4] أوزتونا، يلماز، (1988م)، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سلمان، مراجعة وتحقيق: محمد الأنصاري، ج1، د.م، إستانبول، ص169.
[5] حرب، محمد، (1989م)، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق.
[6] مصطفى، أحمد عبد الرحيم، (1986م)، في أصول التاريخ العثماني، ط2، دار الشروق، القاهرة.
[7] وهارولد بوون، هاملتون جب، (1971م)، المجتمع الاسلامي والغرب، ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة: أحمد عزت عبد الكريم، ج1، دار المعارف، القاهرة.
[8] أوغلى، أكمل الدين إحسان، (1999م)، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تعريب: صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول.
[9] القيسي، أنيس عبد الخالق محمود، (2008م)، النشاط البحري العثماني في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر، اطروحة دكتوراه (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة بغداد.
[10] باشا، كامل، (1327 ه)، تاريخ سياسي دولت علية عثمانية، دوردنجي جلد، احسان مطبعه سي، إستانبول.
[11] ضياء، محمد جميل عباس علي، (2002م)، الدولة العثمانية في عهد السلطان محمد الثاني الفاتح 1451-1481م، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآدب، جامعة الموصل.
[12] عبد العزيز، عمر، (1984م)، تاريخ المشرق العربي 1516-1922، دار النهضة العربية، بيروت.

[13] الغامدي، سعيد بن سعد، (1988م)، الكتاب السنوي لقسم التاريخ والحضارة، د.م، الرياض.
[14] الاقسكي، علي همت بركي، (1953م)، العاهل العثماني أبو الفتح السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية وحياته العدلية، تعريب: محمد إحسان بن عبد العزيز، مطبعة السعادة، القاهرة.
[15] إلهام عبد القادر حمودي الطائي، (2005م)، الدولة العثمانية في عهد السلطان بايزيد الثاني 1481-1512م، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية التربية، جامعة الموصل.
[16] آغا، محمد، (1928م)، سلحدارفند قليلى، سلحدار تاريخى، برنجى جلد، دولت مطبعة سى، إستانبول.
[17] سلطان، علي، (1991م)، المصدر تاريخ الدولة العثمانية، منشورات مكتبة طرابلس العلمية العالمية، دمشق.
[18] أبو زيدون، وديع، (2003م)، تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان.
[19] صالح، محمد محمد، (1982م)، تاريخ أوربا من عصر النهضة الى الثورة الفرنسية 1500-1789، دار الجاحظ للطباعة والنشر، بغداد.
[20] طقوش، محمد سهيل، (2008م)، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة الى الانقلاب على الخلافة، ط1، دار النفائس، بيروت.
[21] آصاف، يوسف بك، (1995م)، تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الأن تقديم محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة.
[22] برنارد لويس، (1982م)، إستانبول وحضارة الخلافة الاسلامية، تعريب: وتعليق سيد رضوان علي، ط2، الدار السعودية، الرياض.
[23] صباغ، عباس اسماعيل، (1999م)، تاريخ العلاقات العثمانية الايرانية الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين، ط1، دار النفائس، بيروت.
[24] الأعظمي، عواد مجيد، (1985م)، الجذور التاريخية في تطلعات العرب المسلمين لفتح مدينة القسطنطينية في عصر صدر الاسلام، بغداد.
[25] حنظل، فالح، (1990م)، معارك البحرية العثمانية ضد البحرية البرتغالية في الخليج العربي، مجلة الوثيقة، (البحرين)، س 9، ع 17.
[26] بروكلمان، كارل، (م1984 م)، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط10، دار العلم للملايين، بيروت.
[27] بجوي، ابراهيم، (1283 ه)، تاريخ بجوي، ج1، أستانبول.
[28] توفيق، محمد، (1887م)، تاريخ عثمانى، أبو الضيا مطبعه سى، إستانبول.
[29] رفيق، أحمد، (1318ه)، مشهور عثمانلى قوماندانلري، أستانبول.
[30] چلبي، كاتب، (1798م)، مصطفى بن عبد الله المعروف (حاجي خليفة)، تحفة الكبار في أسفار البحار، عامرة مطبعه سى، أستانبول.